سيكولوجية الوجاهة الثقافية

ليس غريبًا أن يعجب الإنسان بفكرة يوافقها، أو أن يأنس إلى كاتب يرى العالم بعينيه، فالعقول تميل إلى ما تجد فيه صورة من نفسها، والقلوب تطمئن إلى ما يوافق ما استقر فيها من تصورات ومعتقدات. غير أن الغريب حقًا أن ترى المرء يحتفي بفكرة تنقض الأساس الذي يقف عليه، وأن يكثر من ترديد ونشر أقوال كاتبٍ يتعارض مشروعه الفكري تماماً مع عقيدته.

ولعل هذه المفارقة من أكثر الظواهر انتشارًا اليوم، فما تكاد تمر على منصة من منصات التواصل الاجتماعي حتى تجد اقتباسًا لنيتشه، أو مقولة لشوبنهاور، أو عبارة لماركس، أو سطرًا لكافكا، أو مقطعًا لدوستويفسكي. وتُنشر هذه النصوص في هيئة حكمة أحيانًا، وفي قالبٍ من الاستعراض البصري أحيانًا أخرى، حتى غدت هذه الأسماء علامة على التميز والعمق أكثر مما صارت مادة للفهم أو النقد.

والتفتيش في هذه الظاهرة يكشف عن تناقض واضح، فكثير ممن ينشرون هذه الأقوال والاقتباسات من المفترض أنهم يؤمنون بأن للكون خالقاً، وللحياة غاية، وللأخلاق مرجعاً ثابتاً فوق أهواء البشر. ومع ذلك يقبلون على أفكار نشأت في عوالم مختلفة تماماً، أفكار يرى أصحابها الكون مجرد مادة، أو يصورونه كمتاهة من الألم والاغتراب والتشاؤم والعبث.

وليس السؤال هنا: هل نقرأ لهؤلاء أم لا؟ فذلك سؤال سهل، والإجابة عنه أسهل. وإنما السؤال الأعمق: كيف تحولت أسماء نشأت في بيئات فكرية بعيدة عن التصور الإسلامي للإنسان والحياة إلى علامات للإعجاب والوجاهة الثقافية في أوساط تعلن تمسكها بذلك التصور نفسه؟

من المثير للتأمل أن يتحول نيتشه إلى رمز للعمق عند كثيرين، مع أنه جعل التمرد على الدين جزءًا أساسيًا من مشروعه الفكري، ونظر إلى القيم التي تمجد الرحمة والتواضع والعطف على الضعيف بوصفها تعبيرًا عن الضعف لا القوة، ونظَّر لصورة الإنسان الذي يصوغ قيم قوته بنفسه بعيدًا عن أي مرجع أعلى. وهنا يبرز السؤال: كيف يُقبل على هذه الرؤية من يرى أن العبودية لله هي منبع الحرية الحقيقية، وأن الكمال الأخلاقي يقوم على الرحمة لا على الصراع والتفوق؟

وليس نيتشه وحده، فشوبنهاور الذي تنتشر عباراته على نطاق واسع نظر إلى الحياة بوصفها حركة لا تهدأ بين الألم والملل ورغبات لا تُشبع، ووجودًا يثقل الإنسان بدل أن يمنحه الطمأنينة، ولم ير في العالم غاية واضحة أو حكمة ظاهرة، بل إرادة عمياء تدفع الإنسان إلى المعاناة دون مقصد نهائي.

وعلى نحو مختلف يظهر ماركس، الذي تُقتبس عباراته في العدل الاجتماعي والصراع الطبقي، بينما يقوم تصوره للإنسان والتاريخ على تفسير مادي يجعل الدين إفرازاً طبيعياً للبنية الاقتصادية المتأزمة لا مصدرًا متجاوزًا لها، ويجعل خلاص الإنسان مرتبطًا بتغيير شروطه الأرضية والمادية لا بالوحي أو الغيب.

أما كافكا، فقد رسم في أعماله عالمًا يختلط فيه الغموض بالقلق والإنسان فيه محاصر بقوانين لا يعرف مصدرها، وأسئلة لا يجد لها جوابًا، وسلطة لا يظهر وجهها، فلا عدالة مطمئنة، ولا غاية واضحة، بل حركة داخل متاهة تتسع دون أن تُغلق.

ولعل حالة دوستويفسكي أكثر تعقيدًا، فهو لا يقف خارج الدين ولا ضده مباشرة، لكنه يكتب من داخل أسئلة الإيمان والشك في سياق لاهوتي لا يتفق مع التصور الإسلامي. وقد تبدو بعض الشخصيات عنده أكثر جرأة في طرح الاعتراضات من قدرتها على تقديم الإجابة، فيخرج القارئ أحيانًا وهو مشغول بقوة السؤال أكثر من استقرار الجواب، إذا لم يلتفت إلى السياق اللاهوتي والتاريخي الذي ولدت فيه هذه الأسئلة.

والخطورة الحقيقية هنا لا تكمن في الأفكار بذاتها، بل في آلية الاستقبال السيكولوجي، إذ تشير أبحاث علم النفس إلى أن القراءة بغرض الاستعراض والوجاهة تعطل خطوط الدفاع النقدي لدى الإنسان. فالقارئ في هذه الحالة لا يدخل النص ليفككه أو يناقشه، بل ليمتصه ضمناً كجزء من المظهر الثقافي الذي يرغب في تسويقه لنفسه وللمجتمع، وهو ما يولد ظاهرة التناضح المعرفي البطيء.

فالأفكار الوجودية الكبرى لا تغير الإنسان عبر صدمة فكرية مفاجئة، بل تتسلل من خلال ألفة ممتدة مع النص، فبتكرار القراءة، تتحول سوداوية كافكا، أو المادية الماركسية، أو عدمية نيتشه، إلى أطر إدراكية لا واعية يرى القارئ العالم من خلالها. والنتيجة على المدى البعيد هي تآكل تدريجي لليقين وطمأنينة الإيمان.

إن هذه الملاحظة لا تُطرح كدعوة للانغلاق أو ترك القراءة، فالعقل الذي لا يختبر الأفكار المختلفة يضعف مع الوقت، ولا يعرف يقينه قيمته إلا حين يواجه ما يخالفه. لكن الفرق كبير بين قراءة تُطلب للفهم، وقراءة تُطلب لتشكيل صورة اجتماعية، بين من يدخل النص باحثًا عن المعنى، ومن يدخله باحثًا عن أثره في نظر الآخرين.

فالكتب لا تنقل أفكارًا فقط، بل تنقل طرقًا لرؤية العالم. وما يبدأ فضولًا قد يتحول مع التكرار إلى طريقة ثابتة في التفكير يُعاد من خلالها تفسير الواقع دون أن يشعر صاحبها.

ومن هنا لا تكمن القضية في هؤلاء الكتّاب أنفسهم، فهم نتاج سياقات إنسانية وتاريخية مختلفة، ومن حق القارئ أن يقرأهم ويختبر أفكارهم. وإنما تكمن في الطريقة التي تتحول بها القراءة من محاولة للفهم إلى انبهار بالشكل، ومن تفكير نقدي إلى رغبة في التباهي.

ولعل الثقافة الحقيقية لا تبدأ حين نعرف ماذا قال نيتشه أو ماركس أو شوبنهاور، بل حين نسأل أنفسنا: لماذا أعجبنا بما قالوه؟ وأي جزء من أفكارهم أعجبنا؟ وهل جاء هذا الإعجاب بعد فهم وتمحيص، أم سبق الفهم وجاء البحث عن التبرير لاحقًا؟